

الواقع الصحي للجزائر العثمانية من خلال المصادر الأوروبية Health status of Ottoman Algeria through European sources

حميد ايت حبوش

جامعة أحمد بن بلة، وهران 1 (الجزائر)، hamidaithabouche@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2021/10/30

تاريخ القبول: 2020/10/20

تاريخ الاستلام: 2020/05/27

ملخص:

لم تهتم السلطة العثمانية بالجزائر بالمجال الصحي، مما أثر سلباً على الأحوال الصحية للمجتمع الجزائري من خلال انتشار الأمراض والأوبئة المختلفة على مدار الوجود العثماني بالجزائر (1519-1830م)، وهذا باعتراف كل المصادر المحلية والأجنبية، ركزنا في هذا البحث على بعض المصادر الأوربية، أصحابها كانوا قناصل وأسرى ورحالة عاشوا فترة من الزمن بين أوساط المجتمع الجزائري ودونوا ما لاحظوه وما كان يعاني منه السكان في كل الجوانب خاصة المجال الصحي، كما ركزنا أساساً على أخطر وباء تتعرض إليه الجزائر يتمثل في الطاعون، أسبابه، مصادره، وانعكاساته الاقتصادية والاجتماعية وما هي الوسائل المنتهجة لمواجهة هذا الوباء من قبل السلطة العثمانية والمجتمع الجزائري.

كلمات مفتاحية: الصحة، السلطة العثمانية، الجزائر، الأوبئة، الطاعون

Abstract:

The Ottoman authorities in Algeria did not care about the health field, which negatively affected the health conditions of the Algerian society through the spread of various diseases and epidemics throughout the Ottoman presence in Algeria (1519-1830).

This is in recognition of all domestic and foreign sources, and the focus of this research was on some European sources, of which they were consuls, prisoners, and travelers who lived for a period of time among Algerian society and noted what they observed and what the population was suffering from in all aspects, especially the health field.

We also focused mainly on the most serious epidemic to which Algeria is exposed, which is the Plague, its causes, its sources, its economic and social repercussions, and what are the means adopted to confront this epidemic by the Ottoman authorities and Algerian society.

Key words: Health - Ottoman authority - Algeria - epidemics –plague

مقدمة:

تعتبر الأمراض والأوبئة من العوامل المؤثرة في تأخر المجتمع وضعفه، نظراً لما تلحقه من أضرار بالقطاعات الاقتصادية والاجتماعية وخاصة النمو الديموغرافي.

إنّ البحث في موضوع الأوبئة والأمراض بالجزائر خلال العهد العثماني وبالخصوص مرض الطاعون والكوليرا والتيفوس، يقودنا إلى الحديث عن أهم المدونات التاريخية التي كُتبت حولها وأرّخت لها، وأهم الآثار النفسية والمرضية وحتى الاجتماعية التي خلفتها.

ولعلّ من أهم المدونات التاريخية التي تناولت وبإسهاب كبير موضوع الطاعون على وجه الخصوص الكتابات الأوربية وهي نموذج عن المدونات التاريخية التي تعكس صورة النخبة العالمة خلال تلك الفترة السالفة الذكر حول موضوع الأوبئة، وأهم القضايا والإشارات التي عالجتها، اقتناعاً بعدم وجود نصوص تراثية تؤرخ لأهم الأوبئة والأمراض التي ضربت الجزائر، وإن وجدت فهي قليلة جداً،

1. الأوبئة بالجزائر خلال العهد العثماني :

من أهم الأوبئة التي كانت تتعرض لها البلاد، نجد الطاعون، والكوليرا، والجدي، والتيفوس، التي كانت تفتك بأعداد هائلة من البشر، وتسبب في انخفاض عدد السكان في الجزائر، وتؤثر سلبياً على الحياة العامة. فوباء الطاعون الذي يعد أخطر وباء عرفته الجزائر، كان يظهر حسب بعض المصادر مرة كل خمسة عشرة سنة أو خمسة وعشرين سنة (Venture de paradis, 1983, p.154) ويعود أول ظهور له خلال العهد العثماني إلى سنة 1541م (Marchika, 1927, p. 27).

واستمر في الظهور على فترات معينة، إلى غاية سنة 1822. عرف الوباء انتشاراً واسعاً في مدينة الجزائر والمناطق الغربية من البلاد، حيث تضررت به منطقة وهران، وتلمسان كما تضررت به معظم المناطق الواقعة على الشريط الساحلي، وقدر عدد ضحاياه بتسعة آلاف ضحية (Berbrugger, 1847, T1, p.206)، بما في ذلك صالح رايس الذي توفي سنة 1556، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الجزائر تتعرض للوباء بصفة متقطعة. فوباء سنة 1552، انتقل إلى الجزائر عن طريق الأسطول الذي أرسله السلطان العثماني لصالح رايس، باي لرباي الجزائر في حروبه ضد الإسبان. وإذا كان الوباء ضعيف الفعالية في القرن 16م، فإنه عرف انتشاراً واسعاً ابتداء من القرن

17م، ففي خلال عامي 1602-1603، فتك الطاعون في قسنطينة خلقا كثيراً ثم تلاه قحط وجفاف تواصل مدة تسع سنوات كاملة أدى إلى حصول مجاعات حادة، خلفت ضحايا كثيرة(العنزي، 1991، ص.33).

وفي سنة 1621، فإن الوباء الذي اجتاح مدينة الجزائر خلف حسب (Gramay, 1998) خمسين ألف إلى ستين ألف ضحية (P.80)، ولم تنج المناطق الأخرى من البلاد منه.

وفي الفترة الممتدة ما بين عام 1698-1701، كان عدد الضحايا الذين حصدهم الطاعون في عدة جهات من البلاد تتراوح ما بين خمسة وعشرين ألف وخمسة وأربعين ألف ضحية (Marchika, 1927. P. 73)

وفي أواخر القرن 18، اشتد الوباء أكثر، إذ تعرضت الجزائر وتونس له في عام 1784، ولم ينج منه إلا المغرب الأقصى (Lucette, p.21).

ويعتبر وباء عام 1787، من أخطر وأعنف الأوبئة التي عرفت الجزائر نظراً لما خلفه من ضحايا جسيمة وقد فتك في تلك السنة ثلث سكان مدينة الجزائر فكان عدد الضحايا يومياً ما بين مائتي ومائتي وأربعين (ضحية) مسلم بدون حساب المسيحيين واليهود، هذا على مدى أربعة أشهر (Venture de paradis, 1983p.154).

وإذا كان الوباء قد اختفى في مدينة الجزائر وضواحيها فإنها تنقل إلى المنطقة الغربية فحصد عدداً كبيراً من سكان معسكر وتلمسان. (Marchika, 1927p.141)

وأخروباء عرفت الجزائر خلال العهد العثماني وباء 1817 الذي استمر إلى غاية 1822، وهو يعد أكبر كارثة عرفت البلاد بحيث عم أرجاء الأيالة كلها ووصل إلى مشارف الصحراء مخلفاً عدداً كبيراً من الوفيات. وقد علق أحمد الشريف الزهار (1974) عن هذا الوباء قائلاً: "وفي سنة 1239هـ، انقطع الوباء من الجزائر وقد حل بها في رجب 1232هـ، وبقي سبع سنين (ص.151)، إلى وقت الضحى وصلت مائة جنازة (ص144)".

استناداً إلى ما ذكره الزهار، يبدو أن عدد الضحايا كان مرتفعاً. وفي سنة 1822، اختفى الوباء بصفة نهائية من الجزائر والأقطار المغاربية عامة، وهذا أثناء العهد العثماني طبعاً، ومن الأسباب الرئيسية التي أدت إلى اختفائه:

- الحصار البحري الذي فرضه الأسطول الفرنسي على السواحل الجزائرية
- حيث منع التجار والحجاج والطلبة والجنود من التنقل إلى الجزائر أو الخروج منها.
- قلة الوافدين من الولايات العثمانية، خاصة المشرقية إذ سجل في السنوات الأخيرة من الحكم العثماني في الجزائر تراجع عدد المجندين من المشرق خاصة بعد أن قام السلطان العثماني، محمود الثاني بالقضاء على الفرق الإنكشارية في عام 1826م.

2. مصادر انتقال الوباء وانتشاره:

لقد أجمعت المصادر الأوروبية على أنه كان ينتقل من المشرق، ومن أوروبا، عن طريق الحجاج والمجندين، والتجار والطلبة، وقد علق " هايدو HAEDO " (2004)، على ذلك منذ القرن 16م، قائلاً: " كان الطاعون ينتقل إلى الجزائر من الخارج، ولا غرابة في ذلك، نظراً لعدد السفن المحملة بالبضائع، التي كانت تدخل ميناء الجزائر دون انقطاع قادمة من مختلف الجهات " (P151)، أما "فونتور ديبارادي Venture de paradis " (1983)، ذكر أن الوباء الذي ضرب الجزائر عام 1787، انتقل من الإسكندرية إلى تونس في عام 1783، ليصل إلى الجزائر فيما بعد (P.151). أما عن وباء عام 1817، فقد قال عنه الزهار (1974): "عندما بلغت المراكب المهداة من اسطنبول، جاء معها الوباء إلى الجزائر واشتعلت ناره " (ص.127).

ويعتبر ميناء الإسكندرية ورشيد، من أهم المراكز التي كانت تصدر الوباء، ويعود ذلك إلى كونها همزة وصل بين الموانئ العثمانية، والمغربية والأوروبية، وأيضاً تعتبر الموانئ المصرية محطات يتوقف عندها الحجاج، والتجار، والمجندون، لأخذ قسط من الراحة قبل مواصلة رحلتهم إلى الأقطار المغاربية، ولهذا فإن مصر لم تنج من هذا الوباء وتعد مصدرة له، وما يؤكد ذلك: التقرير الذي أعده نائب القنصل الفرنسي بالإسكندرية دروفتي. وبالتالي فانتشار الوباء يتم عن طريق البحر، وأول من كان يتعرض له هم عمال الموانئ، وأغلبهم من البساكرة (Venture de paradis, p.185).

وقد أكد "كاثكارت" (1982)، ذلك، حين قال: " في فترة وباء الطاعون 1787، كان عدد الذين أصيبوا بالعدوى من نزلاء هذا السجن أكبر ممن قتل في غيره من السجون وذلك بسبب اتصاله المباشر بالبحر" (ص.61).

لكان الوباء لم يتوقف عند هذه الحدود، بل انتشر في وسط المدينة ليفتك بعدد كبير من الجنود المقيمين بالثكنات (Venture de paradis, p.185)، ثم يقضي على عمال الحمامات العمومية، واغلبهم من بني ميزاب (Lucette, p.26)، وبعد ذلك يتسرب الوباء إلى الأحياء الشعبية، حيث تكثر الأوساخ والقاذورات، ومن الأحياء التي تضررت به كثيراً، حي اليهود، نظراً لوجود مذبح الطائفة اليهودية به تتصاعد منه روائح لا تطاق (كاثكارت، 1982، ص. 120).

ولم يبق الوباء في المدن الساحلية فقط بل انتقل إلى المناطق الداخلية، ليقضي على القرويين، والسبب الرئيسي في نقل العدوى إلى قراهم هم عمال الريف الذين كانوا يشتغلون في المدن (Venture de paradis, p.p. 118-119)

نلاحظ أن الوباء كان ينتشر بشكل كبير في الأماكن التي تكون فيها الكثافة السكانية مرتفعة مثل السجون والثكنات العسكرية والأحياء الشعبية. أما عن الإجراءات الوقائية التي اتخذتها السلطات الجزائرية لمحاربة الوباء، فإنها اتخذت إجراء واحد فقط ولكنه هام يتمثل في الكرنطينة QUARANTAINE، وكان هذا الإجراء سائداً في جميع الدول، خاصة الدول الأوربية، وهذا ما أكدته "حمدان خوجة"، في قوله: " اشتهر في بلاد الإفرنج الاحتماء من الوباء، وأعدوا لذلك موضعاً، وسموه كرنطينة، إنما هي الاحتماء والاحتراز، وجعلوا ذلك المحل في مداخل الداخلين إليهم (حمدان خوجة، 1968، ص.79).

وفي بعض الأحيان، السلطات الجزائرية، لم تكن تحترم هذا الإجراء المتمثل في الحجر الصحي أو الكرنطينة، خاصة إذا تعلق الأمر بالسفن المحملة بالبضائع أو المجندين. ففي عام 1817، لوحظ عدداً من السفن الأجنبية والجزائرية القادمة من اسطنبول وأزمير، وبيروت سمح لها بالرسو في ميناء الجزائر، ويبدو أن الوباء الذي كان منتشراً في تلك الفترة جاء في إحدى تلك السفن (Marchika, P 152).

إن هذا الإهمال، جعل الأهالي يضطرون إلى الدفاع عن أنفسهم فكانوا يلجأون إلى وسائلهم الخاصة، ومعتقداتهم، فساكن المدن يكتفون بالبقاء في منازلهم في فترات ظهور الوباء، أما ساكن الأرياف فكانوا يفضلون الهروب إلى المناطق البعيدة التي لم يصلها الوباء (Lucette, P 22)، أما اليهود فكانوا يغسلون جثث أمواتهم بالمياه الباردة ثم الساخنة المختلطة بالأعشاب المعطرة، وكانوا يعتقدون أنه لا يجب البكاء على الأموات، لأن الدموع على الميت تممد في نظرهم، من عمر الطاعون (كاثارت، ص.61).

بينما الأسرى المسيحيون، فكانوا يتوجهون إلى المستشفيات التي أنشأتها دولهم في مدينة الجزائر، إلا أن دورها كان محدوداً نظراً لكثرة المصابين بالوباء، وقلة الإمكانيات العلاجية (Venture de paradis, p.123).

3. انعكاسات الوباء على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية:

كانت لهذا الوباء انعكاسات خطيرة على القطاعات الاقتصادية المختلفة، ففي سنة 1787، سجل ارتفاع كمية الصوف المصدرة إلى الخارج من مدينة عنابة والجزائر لأن عدداً كبيراً من المساجين راحوا ضحية الوباء الذي اجتاح البلاد.

كما أن الشركة الملكية الإفريقية، قامت في نفس السنة بشحن خمسة وعشرون ألف قنطار من الصوف من ميناء عنابة وحده، ومن جانب آخر، سجل انخفاض في عدد الحارثين، الذين يصنعون الأحزمة، وهذا ما جعل تلك الصناعة تعرف تدهوراً ملحوظاً، إذ قل إنتاجها، مما تسبب في انخفاض الكمية المصدرة (شالر، 1982، ص.93). وكان الأجانب يفضلونها من غيرها لجودتها وألوانها (Merouche 2002, p.112).

كما ارتفعت الصادرات الجزائرية من الحبوب، إذ قامت الشركة الملكية الإفريقية بشراء كمية كبيرة من القمح في قسنطينة، قدرت بمائتي ألف حمولة، وساعدها على ذلك تراجع المنافسة الأوروبية، وعدم التعامل مع الجزائر، خوفاً من الوباء الذي انتشر خلال الفترة المذكورة (غطاس، 1983، ص.126). وأيضاً انخفاض عدد المستهلكين من الأهالي نتيجة لهذا الوباء الفتاك. إلا أن هذا الوضع كان استثنائياً، لأن في معظم الفترات، كانت تنتشر المجاعات بعد حلول الجفاف والقحط والجراد والوباء.

أما بالنسبة لانعكاسات الوباء على الجوانب الاجتماعية فكانت هي الأخرى سلبية وخطيرة، فقد أدى إلى تناقص عدد السكان في المدن والأرياف بشكل محسوس. كما قد تسبب في تحولات جذرية في نمط حياة بعض السكان فاندثرت وانقرضت بعض الأسر بأكملها.

كما طرح الوباء مشكلة الإرث على مستوى المدن والأرياف، وهذا ما لاحظناه في كلام " حمدان بن عثمان خوجة، الذي قال: " وفي زمن الطاعون كان لإدارة بيت المال نشاط يفوق جميع الإدارات الأخرى، فهي التي تقوم بإحصاء الموتى، وتعمل على تجنب الفوضى، التي قد تسبب فيها كثرة الوفيات، كما أنها هي التي تتولى التركات المهملة، وتقوم بعمليات الميراث.

ولقد اضطرت بعض القرى في منطقة القبائل، إلى إعادة النظر في قوانينها العرفية، المتعلقة بقضية الميراث، مثل ما حدث في إحدى قرى بني يني، عندما تعرضت القرية ومنطقة القبائل عامة للطاعون سنة 1818، فقد اجتمع سكان القرية ليعيدوا النظر في قوانينهم العرفية، المتعلقة بمسألة الإرث واتفقوا بالإجماع ما يلي: إذا توفي رجل ولم يترك إلا البنات، والأخوات والأم والأرملة، فكلهن يستفدن من ثلث تركة المرحوم، شريطة أن تبقى أرملته في بيت الزوجية، وتقوم النساء بتسيير تركتهن كما يشأن، أما إذا حدث أن إحدى النساء المذكورات قد قدر لها أن تزوجت وارتحلت إلى قرية أخرى، فلا يسمح لها بأن تأخذ شيئاً من التركة إلى بيت زوجها (Shaw, 1980, p.86).

كما أثرت الأوبئة الأخرى في تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، لا تقل خطورة عن وباء الطاعون، ساهمت هي أيضاً في تدهور الأحوال من أهمها، الجدري، الكوليرا، التيفوس، فكانت هذه الأوبئة غالباً ما تظهر في فترات انتشار وباء الطاعون (Haedo, p.492).

وقد أرجع المؤرخون وجود وباء الجدري في منطقة شمال إفريقيا إلى ثلاثة آلاف سنة ماضية، واعتبروه من أخطر الأوبئة التي تفتك بالسكان، إذ كان ينتشر مرة كل أربع سنوات تقريباً، ففي سنة 1804، أهلك ما يزيد عن ألفي شخص، وكان الأهالي القاطنون بجوار المستنقعات أكثر تعرضاً لهذه الأوبئة (Haedo, p.492).

وكان الأهالي يعالجون وباء الجدري بالطريقة التالية: يترك المريض في غرفة معتدلة الحرارة ويناولونه من حين لآخر، بعض حبات من التين المجفف الممزوج بالعسل، ويستمرون في هذه

العملية حتى تخرج البثور على جسم المريض، ثم يحكونها بالزبدة الطرية لإزالة آثارها، ويضعون الكحل على عيون المريض، لوقايتها من الإصابة بالجذري (حمدان خوجة، 1968، ص. 150).

جدول 1

أهم الأوبئة التي عرفت الجزائر طيلة العهد العثماني

سنة الوباء	الحصيلة
1654	قضى على ثلث سكان مدينة الجزائر.
1664	أدى إلى نقص سكان مدينة الجزائر إلى أقل من النصف، أي لا يتجاوزون ثلاثين ألف نسمة أو خمسة وعشرين ألف نسمة وقد أهلك من الأسرى الأوربيين فقط حوالي عشرة آلاف أسير.
1740	دام ثلاث سنوات، وأهلك في الأسبوع الأول عشرة آلاف نسمة، وفي الشهر الأول ما بين 300 و400 نسمة في اليوم.
1786 – 1787	أدى إلى هلاك 16721 نسمة من مدينة الجزائر منهم 14334 من المسلمين والباقي من الأسرى واليهود، فتناقص عدد سكان مدينة الجزائر إلى 50.000 نسمة، كما تسبب في موت ثلثي سكان مدينة عنابة، وتركزت الحقول بدون حصاد.
من 1792 إلى غاية 1798	أضر بجميع الجهات لاسيما وهران والجزائر وقسنطينة.
1817 - 1818	قضي في مدينة الجزائر على أكثر من 14.000 نسمة، وأدى إلى هلاك ثلثي سكان مدينة عنابة، التي لم يعد يتجاوز سكانها بسبب هذا الوباء 5000 نسمة كما تضررت به أغلب المناطق الجبلية والصحراوية.

المصدر: سعيدوني، 1986، ج2، ص. 434

بالإضافة إلى الأوبئة، كانت الجزائر عرضة للأمراض أخرى، ولكنها قليلة ولم تؤثر كثيراً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر.

ومن بين الأمراض التي كانت تظهر من حين لآخر، مرض الرمد الذي كان يصيب الأطفال في معظم الأحيان. ولقد أكد " حمدان بن عثمان خوجة" (1968)، هذا المرض أنه يصيب الأطفال بقوله: " ومن حيث التكوين الجسدي، فإن أجسام الجزائريين رشيقة، وذلك أن امتزاج العنصر التركي بالعنصر الأندلسي قد أنتج عنصراً مختلفاً من النوع الرفيع، الأمر الذي جعلنا لا نجد في مدينة الجزائر رجالاً من ذوي العاهات، أو المصابين بالأمراض الكريهة، أو أمراض الجلد، ولم يعرف مرض الزهري إلا حديثاً، وكان يسمى بارييس ويعالج بحمية من أصعب ما يكون، ولكن المريض كان يشفى شفاء كاملاً في ظروف شهرين ... " (ص. 150).

ويفهم من هذا القول، أن الأمراض غير منتشرة كثيراً في المجتمع الجزائري، وهناك من أرجع الأسباب إلى اهتمام الأهالي بالجانب الصحي، واعتنائهم بنظافة ملابسهم ومنازلهم، فكانوا يغسلون أيديهم قبل إقدامهم على العمل، وأداء الصلاة، وتناول الطعام، وهذا ما جعل الأوروبيون يعتقدون أن ظاهرة الغسل المتكررة عند الجزائريين، شذوذاً، ومما كان يؤكد اهتمام الجزائريين، خاصة الحضر، بالنظافة العدد الكبير من الحمامات، التي كانت منتشرة في مختلف أنحاء المدينة (Klein, 2003, T2, p.45).

أما سكان الأرياف القاطنين بجوار المستنقعات كانوا أكثر تعرضاً لمرض الملاريا أو حتى المستنقعات ومن أهم المناطق التي عانت منه نذكر منطقة سهل متيجة وما يشابهها.

4. الرعاية الطبية في العهد العثماني:

يبدو من خلال المصادر الأوربية، تكاد تكون منعدمة، وقد لاحظ " شاو " الذي زار الجزائر في مطلع القرن 18م، أن الجزائر كانت تفتقر إلى الأطباء، وأرجع ذلك إلى قلة الأمراض الخطيرة أو انعدامها (Shaw, p.81).

ومهما تضاربت الآراء في تلك الفترة حول هذا الموضوع فإن الذي لا جدال فيه هو أن العثمانيين لم يهتموا بالحياة الصحية لسكان الجزائر، فلم تنشأ مؤسسات صحية لهذا الغرض، بينما بذل الحكام ما في وسعهم لجلب الأطباء لرعاية أنفسهم وحاشيتهم (سعد الله، 1998، ج2، ص.431).

وعليه فقد اعتمد السكان على إمكانياتهم الخاصة لعلاج الأمراض، حيث استعملوا الطب التقليدي كدواء لبعض الأمراض، كما اعتمدوا على الأدوية والتمايم للتخفيف عن مرضاهم بعض آلام الأمراض (Venture de paradis, p.147)، كما كان الأهالي يعالجون الأعضاء المصابة في الجسم إما ببيتها أو بكمها، وكانت عملية البتر تتم بضربة سيف، أما كي الأعضاء المريضة فكان يتم بحديد متوهج ثم يطلي المكان المكوي بالقطران، ويكررون العملية عدة مرات، وكذلك حسب شدة المرض، ومدى قدرة تحمل المريض (Shaw, p.82).

ومن الأدوية الفعالة أيضاً التي كانت تستعمل في علاج الحمى، أقراص الكين الكينة، وهذا ما أشار إليه " ابن حمادوش" (1982)، وهو بالمغرب الأقصى حيث قال: " أصابني حمى شديدة، فلم أستطيع القراءة، حتى ألهمني الله أن أشتري ثلاثة أثمان من الكين الكينة، فاشتريتها بستة موزانات، نفقت الثمن الأول، وشربته في فنجان قهوة من البن " (ص. 84).

كما هناك طرق أخرى لعلاج الحمى، فعندما يصاب الجدافون المسيحيون على السفن الجزائرية بالحمى، كان رب السفينة يرغمهم على الاستمرار في الجدف ويطعمهم بالخبز المجفف، والماء العذب واللحم المملح، وكان ذلك يساعدهم على إخراج العرق، مما كان يعجل شفائهم، وفي بعض الأحيان، يلجأ رب السفينة إلى استعمال إحدى الحبل التي أثبتت نجاعتها، وينزل إلى البر، ويحمل معه المريض مقيد الأيدي ثم يأمر بقية البحارين باشتعال النار، ويوهم المريض بأنه سيلقي به في النار وعندما يدرك المريض ما كان ينتظره يلوذ بالفرار وقد لوحظ أن الجري، كان يساعد المريض على إخراج العرق، ويشفى بذلك من مرضه (Berbrugger. 1864, p.p. 133 – 134).

والأوربيون أيضاً كانوا يستعملون الطرق التقليدية لمعالجة بعض الأمراض، رغم التطور الذي عرفه الطب الحديث عندهم، وهذا ما لاحظناه من الطريقة التي عالج بها الأسير الألماني في الجزائر "بفايفر" بين 1825 – 1830، أحد وزراء الداوي حسين، حيث قال: " أنني لاحظت أن الوزير يعاني من الالتهاب في الكبد، فقامت بوضع دم القنفذ على كبد المريض وحضرت له مزيجاً من الشاي والسكر والصمغ العربي، وطلبت منه أن يتناول المشروبات الباردة، وفي اليوم التاسع من العلاج شفي الوزير من مرضه (بفايفر، 1974، ص.26).

أما الجروح الناجمة عن الأسلحة النارية والبيضاء، فإن الأهالي كانوا يعالجونها بطرق مختلفة، فكانوا يضعون الزبدة الطرية على الجرح، بعد تسخينها، كما كانوا يستعملون أوراق

الصبار، بعد تحميلها ربع ساعة في الرماد، لمعالجة الأورام والالتهابات، والقرحة، والنقرس، أما نبتة المقرمان، فكانت تستعمل لمعالجة الجروح وتخفيف من آلام الحوض، فكانت توضع كمية منها بعد تسخينها، على مستوى حوض المريض وتزج بحزام من الصوف أو القماش، وهناك مجموعة أخرى من النباتات والأعشاب يحضر منها مشروباً ساخناً، يتناوله المريض (Shaw, p. 84).

ومن الأمراض المنتشرة أيضاً، هناك الاضطرابات النفسية التي غالباً ما يرجعها الأهالي إلى الجن، أما طريقة معالجتها يتم بالبخور و الجاوي، والتمائم وزيارة الأولياء و الزوايا والذباح، فنساء الحضر، لاسيما السودانيات، توجهن كل يوم الأربعاء إلى إحدى عيون مدينة الجزائر المسماة سبع عيون، ويقمن بذبح عدد من الدجاج، وكانت العملية تتم صباحاً حتى لا يزجن في اعتمادهن الجن، الذين يخرجون في الليل لشرب دماء الذبائح (Klein, T2, p.51).

وهذه الظاهرة كانت منتشرة في الأرياف أيضاً، فكانت الأمهات يترددن كثيراً بأطفالهن على بعض العيون اعتقاداً منهن أن مياهها تشفي كل الأمراض، ومن أشهر تلك العيون في منطقة القبائل، عين الدواء الواقعة بعرض آثايرثن.

5..المراكز الصحية:

هناك في مدينة الجزائر بعض المستشفيات لمعالجة الأمراض المختلفة، وأول مستشفى تم تشييده في الجزائر يعود إلى سنة 1549 من طرف حسن بن خير الدين بايلرباي الجزائر، يحتوي على خمس غرف، إلا أنه كان يفتقر إلى التجهيزات والأدوية الضرورية (Haedo, p.310).

إذا كان معظم سكان الجزائر أو الأهالي اعتمدوا على إمكانياتهم الخاصة لعلاج الأمراض، فإن الدول المسيحية منذ بداية الوجود العثماني، كانت تعتني برعاياها الذين وضعوا في الأسر بالجزائر وذلك بإنشاء عدة مستشفيات لهم، لاسيما إسبانيا وفرنسا، وتم تكليف بعض رجال الدين بالإشراف عليها، وتسيير شؤونها (Berbrugger, p.206).

وقد قام الراهب الإسباني " قاريدو GARIDO " الذي وصل إلى الجزائر في عام 1662 بإعادة ترميم أربعة مستشفيات كما زود كل واحد منها، بقس وطبيب وجراح وممرضين، وطباخين، كما أنشأ صيدلية مركزية بسجن الباشا، الذي يقع بالجنيينة كانت تتمون المستشفيات بالأدوية

الضرورية، وكانت تلك المنشآت الصحية، محل العناية الكاملة لدى السلطات الجزائرية، وهذا ما يؤكد القرار الذي أصدره الداى شعبان فى أواخر القرن 17م، الذى ألح فيه على ضرورة حماية الحقوق المادية والمعنوية لتلك المستشفيات، وهو القرار الذى جدهه الداى أحمد، فى عام 1695م (Berbrugger, p.132).

وكانت المستشفيات الموجودة بمدينة الجزائر التى لا يتعدى عددها خمسة (5) مستشفيات (Devoulx, (A) 1871, p.341)، تتلقى إعانات مالية من الدول الأوروبية التى قدرت بألفى ريال، وقد رفض فيما بعد، على كل المراكب المسيحية، المترددة على ميناء الجزائر، دفع ثلاثة ريالات لفائدة المستشفيات كما كان المسيحيون مطالبين قبل مغادرتهم الجزائر، بدفع ثلاثة ريالات فضية (Klein, p.158).

إن الوضع العام فى الجزائر عرف أيضاً إلى جانب الأوبئة والأمراض، الكوارث الطبيعية، مثل القحط والجفاف، والمجاعات (Haedo, p.310)، والجراد والزلازل، والفيضانات، التى ساهمت فى تدهور الأوضاع (Devoulx, 1871, p.341).

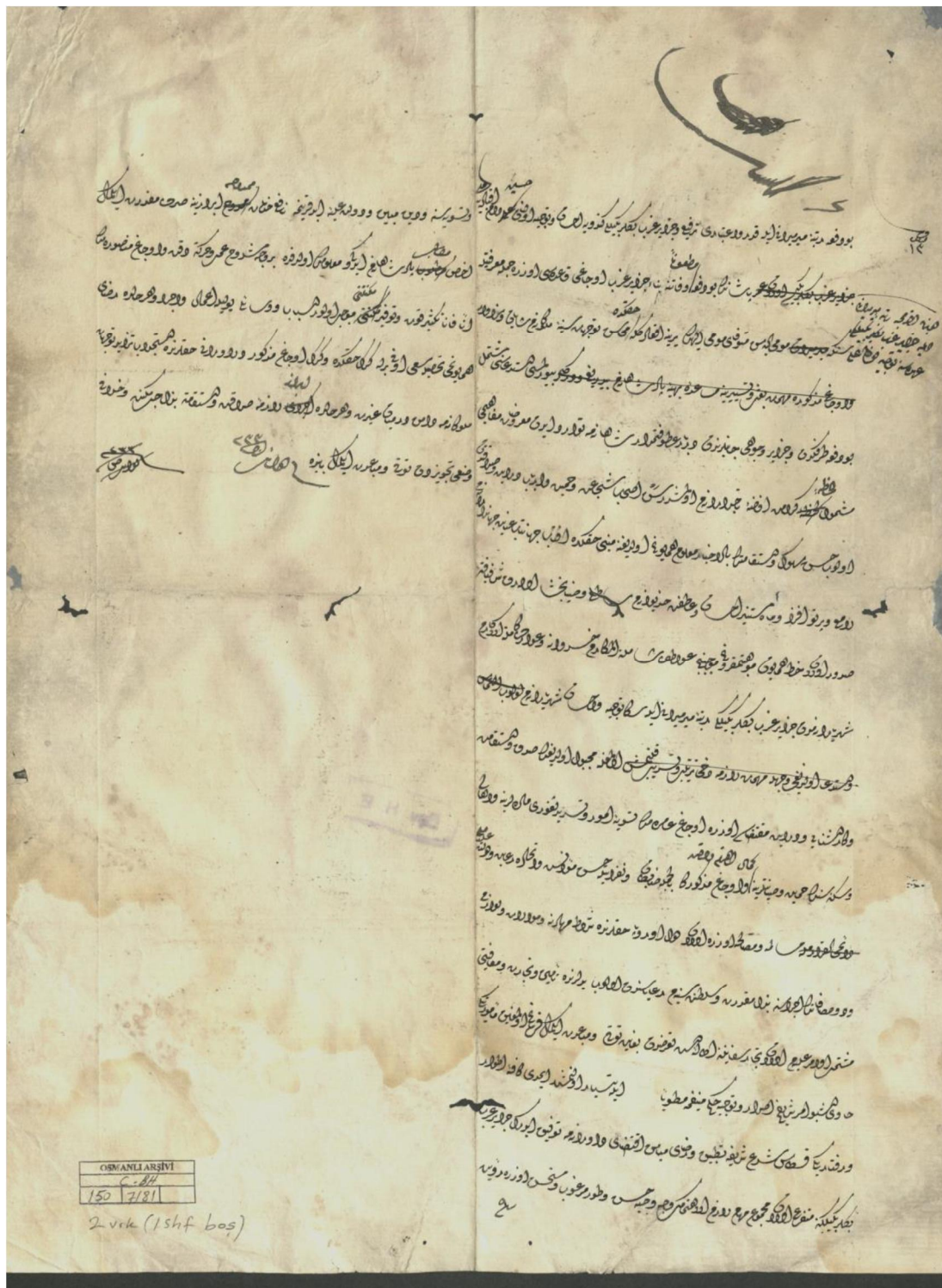
خاتمة:

نستنتج من خلال ما تقدم أن المجتمع الجزائري حالته الصحية كانت متردية حتى ولو لم يعرف أمراضاً كثيرة نظراً لإهمال الرعاية الصحية من طرف السلطات، فالرعاية الصحية كانت لا تتجاوز المبادرات والاجتهادات الشخصية.

قلة الأمراض المنتشرة في أوساط المجتمع الجزائري يمكن أن نفسره بطبيعة المناخ، ونوعية التغذية، أن الأوبئة لاسيما وباء الطاعون فإنه تسرب إلى الجزائر من الخارج، خاصة من الدول المشرقية، نظراً للاتصالات المكثفة معها.

الملاحق:

شكل 1: وثيقة ضمن وثائق الأرشيف العثماني تتحدث عن وفاة الداي علي خوجة بالطاعون سنة (1817م)



C.BH.00150.07181.001

قائمة المصادر والمراجع:

المجلد 09 العدد 02 خاص 2021
الأوبئة والأمراض في الجزائر وبلاد المغرب

آفاق فكرية

1. محمد صالح، العنتري، (1991)، فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلدة قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتعليق، يحي بوعزيز، دم.ج. الجزائر.
2. حمدان، بن عثمان خوجة، (1968)، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء، تعليق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ش.و.ن.ت. الجزائر.
3. عبد الرزاق، بن حمادوش، (1982)، لسان المقال في النبأ عن النسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم يعد الله، ش.و.ن.ت. الجزائر.
4. الزهار، أحمد الشريف، (1974)، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشرف الجزائر، تقديم وتعليق، أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت. الجزائر.
5. كاثكاتر، جيمس لندر، (1982)، مذكرات أسير الداي كاثكاتر قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق وتقديم اسماعيل العربي دم. الجزائر.
6. سيمون، بفايفر، (1982) مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تعريب وتقديم: أبو العيد دودو، ش.و.ن.ت. الجزائر.
7. ناصر الدين، سعيدوني، (1986)، "الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني"، في الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، ج2، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، منشورات الدراسات والبحوث، زغوان.
8. أبو القاسم، سعد الله، (1986)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
9. عائشة، غطاس، (1983)، "الوضع الصحي في للجزائر خلال العهد العثماني" في مجلة الثقافة، العدد 76، الجزائر.
10. Shaw, Tomas (1980). Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'anglais par J.Maccarthy, 2^{ed}, bousslama, Tunis.
11. Venture de paradis J.M. (1983). Tunis et Alger, au XVIII^e siècle, bib, Arabe sandbad, Paris.
12. Haedo F.D. (2004). Histoire des Rois d'Alger, Trad, se l'espagnol par delmas de grammont, éd, grand Alger livres, Alger.
13. Devoulx, A. (1871). « Quelques tempêtes à Alger » in R.A N° 15, Alger.
14. Klein, H. (2003). Feuilles d'eldjazair, ed, du tell, 2T blida.
15. Berbrugger: (1864). « Charte des hopiteaux chretiens en 1694 » in R.A. N° 8 Alger.
16. Remond, M., (1927) « L'élargissement des droits politiques des indigenes, ses conséquences en kabylie », in RA N° 68 Alger.
17. Marchika, J, (1927) La peste en Afrique séptentrionale histoire de la peste en afrique de 1363 à 1830 Alger, carbonal.
18. Berbrugger, (A). (1847): « Memoires sur la peste en algérie » in explorations scientifiques en Algérie, 2T, imp: royale Paris.
19. Lemnouar, merouche, (2002). Recherches sur l'algérie à l'époque ottmane, monnaies, prix et revenus 1520-1830, ed bouchene, Paris.